

سورة الإسراء

﴿الآيات: 56 - 60﴾

الدرس

15

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرّف المقصود بالمعبودات التي نهى الله سبحانه عن عبادتها.
- 2- أن أستنتج الحكمة من عدم تخصيص الله تعالى قريشا بآية من آياته.
- 3- أن أتمثل مبادئ التوحيد التي ترشد إليها الآيات.

تمهيد

بين الله سبحانه في هذه الآيات ما كان يعبد المشركون من دون الله، ثم قرر أن انتشار الظلم سبب إهلاك الأمم، وأن الذي يمنع من تخصيص قريش بالمعجزات، هو تكذيب من سبقهم من الأمم بمثيلاتها، ثم طمأن رسوله ﷺ بأنه عاصمه من قومه وأنه سينصره ويؤيده، مبينا له بأنه جعل أمر الإسراء وشجرة الزقوم فتنة للناس واختبارا لهم.

فمن هم الذين نهى الله تعالى عن عبادتهم؟ وما الحكمة من عدم تخصيص قريش بآية معجزة مثل الأمم السابقة؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا إِلَهًا إِلَّا إِلَهُي زَعَمْتُمْ مِثْلَ نُونٍ، فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَخْوِيلًا ۖ ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۖ ﴿٥٧﴾ وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ

إِلَّا تَعَزُّمْ فَلِكُوفًا قَبْلَ يَوْمِ الْفِيلَةِ أَوْ مَعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ
 فِي الْكِتَابِ مَسْكُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَعْمَىٰ وَلَوْ
 وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّافِةَ مُبْصِرَةً فَضَلَمُوا بِدْعًا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾
 وَإِنَّ فُلْنًا لَّآ إِنَّا رَبُّهَا أَهْلُهَا بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّيَاءَ أَلَنَّا أَرْبَابًا إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ
 وَالشَّجَرَةُ الْمَعْنُوتَةُ فِي الْغُرَىٰ وَيُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا ضَلَالًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

[سورة الإسراء: 56 - 60]

الفهم

الشرح :

- يَتَّبَعُونَ : يطلبون.
 الْوَسِيلَةَ : القربة، وسبب الوصول إلى البغية.
 مَعْدُورًا : واجب الاتقاء والحذر.
 فِي الْكِتَابِ : في سابق القضاء، وما خطه القلم في اللوح المحفوظ.

استخلاص المضامين :

- 1- عماذا نهى الله تعالى في هذه الآيات؟
- 2- ما الحكمة التي تضمنتها الآيات؟
- 3- بماذا طمأن الله تعالى نبيه ﷺ في الآيات؟

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولاً: النهي عن عبادة غير الله تعالى:

تواصل الآيات بيان باطل ما يعبده المشركون من دون الله، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرُوكُمُ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُّؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَئِن لَّمْ يَكُونُوا كَاشِفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَنْصُرُوا﴾ والذين أمر رسول الله ﷺ أن يخاطبهم في هذه الآية ليسوا عبدة الأصنام، وإنما هم عبدة من يعقل. قال ابن مسعود: نزلت في عبدة الشياطين، وهم خزاعة أسلمت الشياطين وبقوا يعبدونهم. وقال ابن عباس: في عزيز والمسيح وأمه. وعنه أيضاً وعن ابن مسعود وابن زيد والحسن: في عبدة الملائكة، وعن ابن عباس: في عبدة الشمس والقمر والكواكب وعزيز والمسيح وأمه.

وفي قوله تعالى: ﴿زَعَمْتُمْ﴾ " ضمير محذوف عائد على الذين، وهو المفعول الأول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: زعمتموهم آلهة من دون الله " [البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان: 7/ 70].

ومعنى الآية: قل لهؤلاء المشركين: ادعوا عند الشدائد والضرر هؤلاء المعبودين، فإنهم لا يملكون كشفه ولا تحويله عنكم. ثم أخبرهم على قراءة ابن مسعود وقتادة " تدعون " بالتاء، أو أخبر النبي عليه السلام على قراءة الجمهور ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء؛ أن هؤلاء المعبودين يطلبون التقرب إلى الله والتزلف إليه، وأن هذه حقيقة حالهم.

وقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾: ﴿أُولَئِكَ﴾ يراد به المعبودون، وهو مبتدأ خبره ﴿يَبْتَغُونَ﴾، والضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ للكفار. وفي ﴿يَبْتَغُونَ﴾ للمعبودين. و﴿الْوَسِيلَةَ﴾ هي القربة، وسبب الوصول إلى البغية، وتوسل الرجل: إذا طلب الدنو والنيل لأمر ما، وقال عنتره: " إن الرجال لهم إليك وسيلة"، ومنه قول النبي ﷺ: " من سأل الله لي الوسيلة " الحديث.

و﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ مبتدأ. و﴿أَقْرَبُ﴾ خبر. و" أي " استفهامية، والتقدير: ينظرون ويتأكدون أيهم أقرب، فيتوسلون به. وقال ابن فورك وغيره: إن الكلام من قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾

راجع إلى النبيئين المتقدم ذكرهم، ف ﴿يَدْعُونَ﴾ على هذا من الدعاء، أي: يدعون الناس إلى دين الله. والضمير المرفوع في ﴿يَدْعُونَ﴾ وفي ﴿يَبْتَغُونَ﴾ عائد عليهم أيضا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُعْلِمُونَ﴾ فَبَلَّيْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ مَعَذَّبْنَاهَا نَذَارًا لِشِدَّةِ مَا كَانَ عَلَيْكَ فِي الْكِتَابِ مَسْكُورًا ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس، والضمير في ﴿مُعْلِمُونَ﴾ يعود على القرية، وفي ضمن ذلك الأهل. وقوله: ﴿مَعَذَّبْنَاهَا﴾ هو على حذف مضاف، فإنه لا يعذب إلا الأهل. وقوله: ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ يريد: في سابق القضاء، وما خطه القلم في اللوح المحفوظ. و﴿مَسْكُورًا﴾ أي: مكتوبا.

ومعنى الآية: أنه ليس مدينة من المدن إلا هي هالكة قبل يوم القيامة بالموت والفناء، تؤخذ جزءا جزءا، أو هي معذبة مأخوذة مرة واحدة، فهذا عموم في كل مدينة. وقيل: المراد الخصوص، أي: وإن من قرية ظالمة. والمعلوم أن كل قرية تهلك، إما من جهة القحوط والخسف غرقا، وإما من الفتن، أو منهما. وصور ذلك كثيرة لا يعلمها إلا الله عز وجل، فأما ما هلك بالفتنة، فعن ظلم ولا بد، إما في كفر أو معاص، أو تقصير في دفاع وحزامة، وأما القحط فيصيب الله به من يشاء، وكذلك الخسف.

ثانيا: الحكمة من عدم تخصيص الله تعالى قريشا بآية من آياته:

بين الله تعالى حكمة عدم تخصيص قريش بمعجزة من معجزاته، فقال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلَىٰ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾، ﴿أَنَّ﴾ الأولى في موضع نصب، و﴿أَنَّ﴾ الثانية في موضع رفع، والتقدير: وما منعنا الإرسال إلا التكذيب. وفي الكلام حذف، والمعنى: وما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فعل بمن كان قبلهم. وسمى الله تعالى سبق قضائه بتكذيب من كذب وتعذيبه منعا على ظاهر ما تفهم العرب.

وسبب نزول هذه الآية: أن قريشا اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهابا، واقترح بعضهم أن يزيل عنهم الجبال حتى يزرعوا الأرض؛ فأوحى الله إلى محمد عليه الصلاة والسلام: إن شئت أن أفعل ذلك لهم، فإن تأخروا عن الإيمان عاجلتهم العقوبة، وإن شئت استأنيت بهم، عسى أن أجتبي منهم مؤمنين؛ فقال رسول الله ﷺ: "بل تستأنني بهم يارب". وقد أخر الله

تعالى العذاب عن مشركي قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمناً.

ولما علم الله تعالى أن المشركين سيقولون: لو جاءتنا آية مما اقترحناه كنا سنؤمن؛ احتج الله تعالى عليهم وذكرهم بأمر ثمود، فقال: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَهَلَمُوا بِهَا﴾، قوله: ﴿مُبْصِرَةً﴾ على جهة النسب أي: معها إِبْصَار، كما قال: ﴿آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: 12] أي: معها إِبْصَار ممن ينظر، وهذا عبارة عن بيان أمرها ووضوح إعجازها. وقرأ قوم "مبصرة" بضم الميم وفتح الصاد، حكاة الزجاج، ومعناه متبينة، وقرأ قتادة "مبصرة" بفتح الميم والصاد، وهي مفعلة من البصر، ومثله قول عنتره:

نبئت عمرا غير شاكر نعمتي * * والكفر مخبثاً لنفس المنعم

وقوله: ﴿فَهَلَمُوا بِهَا﴾ أي: وضعوا الفعل في غير موضعه، عندما عقروها. وقيل: بالكفر في أمرها. والمعنى: أن الله تعالى أعطى ثمودا الناقة آية من آياته البينة فكفروا بها وعقروها، فلا تأمنون أن تظلموا بالآية التي اقترحتموها، كما ظلمت ثمود بالناقة.

ثم أخبر الله تعالى أنه إنما يرسل بالآيات غير المقترحة تخويفاً للعباد، فقال سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ وهي آيات معها إمهال لا معاجلة، فمن ذلك الكسوف والرعد والزلزلة والموت الذريع وغير ذلك. وروي أن الكوفة رجفت في مدة عبد الله بن مسعود. فقال: أيها الناس: إن ربكم يستعقبكم فأعتبوه. ومن هذا قول النبي ﷺ في الكسوف: "فافزعوا إلى الصلاة" الحديث. وآيات الله المعتبر بها ثلاثة أقسام: قسم عام في كل شيء؛ إذ حيثما وضعت نظرك وجدت آية، وهنا فكرة العلماء. وقسم معتاد غبا كالرعد والكسوف ونحوه، وهنا فكرة الجهلة فقط. وقسم خارق للعادة وقد انقضى بانقضاء النبوة، وإنما يعتبر به توها لما سلف منه.

ثالثاً: عصمة الله تعالى نبيه ﷺ من المشركين:

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْإِنسَانِ إِنَّ رَبَّكَ أَخَاكَ بِالنَّاسِ﴾ أي: واذكر يا محمد حين أخبرناك أن الله أحاط بالناس في منعك وحفظك وعصمتك، فلتبلغ رسالة ربك ولا تنهيب أحداً من المخلوقين. فالآية إخبار له بأنه محفوظ من الكفرة، آمن أن يقتل أو ينال بمكروه عظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَبْنَا إِلَآ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾، اختلف الناس في الرؤيا، فقال الجمهور: هي رؤيا عين ويقظة، وهي ما رأى رسول الله ﷺ في ليلة الإسراء. قالوا: فلما أخبر رسول الله ﷺ صبيحة الإسراء بما رأى في تلك الليلة من العجائب، قال الكفار: إن هذا لعجيب تحت الحداة إلى بيت المقدس شهرين إقبالا وإدبارا، ويقول محمد: إنه جاءه من ليلة وانصرف منه. فافتتن بهذا التلبيس قوم من ضعفة المسلمين فارتدوا، وشق ذلك على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآيات.

فعلى هذا يحسن أن يكون معنى قوله: ﴿وَإِنَّمَا فُتِنَا بِآيَاتِ رَبِّكَ آحَاكِهِ بِالنَّاسِ﴾ أي: في إضلالهم وهدايتهم، وأن كل واحد ميسر لما خلق له، أي: فلا تهتم أنت بكفر من كفر ولا تحزن عليهم، فقد قيل لك: إن الله محيط بهم مالك لأمرهم، وقد جعل رؤياك هذه فتنة ليكفر من سبق عليه الكفر. وقال ابن عباس: الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة، فعجل في سنة الحديبية فرد عنها، فافتتن المسلمون بذلك، فنزلت الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْفُرَاتِ﴾ الشجرة هنا في قول الجمهور هي شجرة الزقوم، ووصفت بالملعونة وأريد بذلك الملعون أكلها؛ لأنها لم يجر لها في القرآن ذكر إلا في هذا الموضع. قال ابن عطية: ويصح أن يريد الملعونة هنا، فأكد الأمر بقوله: ﴿فِي الْفُرَاتِ﴾. وقالت فرقة: الملعونة المبعدة المكروهة؛ لأن الله تعالى لعنها بلفظ اللعنة المتعارف، وما ينبت في أصل الجحيم فهو في نهاية البعد من رحمة الله. ﴿وَالشَّجَرَةُ﴾ معطوفة على ﴿الرُّؤْيَا﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَنُفِخُ فِي سُفُوفِهِمْ﴾ أي: ونخوف هؤلاء الكفار، أي: كفار مكة، بمخاوف الدنيا والآخرة، ونتوعدهم بالعقوبات، ﴿بِمَا يَزِيدُكُمْ إِعْصِيَانَكُمْ كَثِيرًا﴾ أي: فما يزيدهم التخويف إلا تماديا فيما هم فيه من الكفر والضلال.

ثالثا: مقاصد الآيات:

تهدف هذه الآيات إلى تحقيق جملة من المقاصد التربوية، منها:

- الدعوة إلى توحيد الله تعالى الذي يستحق وحده العبادة، والرد على المشركين الذين يعبدون من لا يملك لهم نفعا ولا ضرا.

• بيان فضل الله تعالى وإنعامه على المسلمين بإمهالهم وتأجيل عقابهم للتوبة والاستقامة، كما أنعم على نبيه بعصمته من قومه؛ ليتمكن من تبليغ الرسالة التي كلف بها من عز وجل.

التقويم

- 1 - أستنتج مظاهر الضعف والقصور فيما يعبده الناس من دون الله.
- 2 - أبين أثر الاختلاف في عودة الضمير على معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْدَ الَّذِينَ يَدْعُونَ؟﴾
- 3 - لماذا لم يقم الله الحجة على مشركي قريش بآية من الآيات التي اقترحوها؟

الاستثمار

قال الألوسي رحمه الله، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ الْآتِئَاتِ أَنْ كَتَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾: " وَذَكَرَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّ تَكْذِيبَ الْأَوَّلِينَ الْمُسْتَتَبِعَ لِلِاسْتِنْصَالِ وَالْمُسْتَلْزَمَ لِتَكْذِيبِ الْآخِرِينَ الْمُفْضِي لِحُلُولِ الْوَبَالِ مُنَافٍ لِإِرْسَالِ الْآيَاتِ الْمُقْتَرَحَةِ لِتَعْيُنِ التَّكْذِيبِ الْمُسْتَدْعِي لِمَا يُنَافِي الْحِكْمَةَ فِي تَأْخِيرِ عُقُوبَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ فَعَبَّرَ عَنْ تِلْكَ الْمُنَافَاةِ بِالْمَنْعِ عَلَى نَهْجِ الاسْتِعَارَةِ إِذْ أُنَا بَتَعَاضِدِ مَبَادِي الْإِرْسَالِ، لَا كَمَا زَعَمُوا مِنْ عَدَمِ إِرَادَتِهِ تَعَالَى لِتَأْيِيدِ رَسُولِهِ ﷺ بِالْمُعْجَزَاتِ، وَهُوَ السِّرُّ فِي إِثَارِ الْإِرْسَالِ عَلَى الْإِيتَاءِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِشْعَارِ بِتَدَاعِي الْآيَاتِ إِلَى النَّزُولِ لَوْلَا أَنْ تُمْسِكَهَا يَدُ النَّقْدِيرِ. وَإِسْنَادُ الْمَنْعِ إِلَى تَكْذِيبِ الْأَوَّلِينَ لَا إِلَى عِلْمِهِ تَعَالَى بِمَا سَيَكُونُ مِنَ الْمُقْتَرَحِينَ الْآخِرِينَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ يَوْمَ الْخِزْيَانِ أَنَّ سَمْعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: 23] لإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِإِبْرَازِ الْأَنْمُودَجِ، وَلِلْإِذَانِ بِأَنَّ مَدَارَ عَدَمِ الْإِجَابَةِ إِلَى إِيْتَاءِ مُقْتَرَحِهِمْ لَيْسَ إِلَّا صَنِيعُهُمْ ". [روح المعاني، للألوسي: 99/8 (بتصرف)]

أتأمل النص وأجيب عن الآتي:

- أبين من خلال النص سبب تعبير الآيات بـ " المنع " و " الإرسال " .

أتأمل الآيات: 61- 65 من سورة الإسراء وأجيب عن الآتي:

1 - أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: كَرَّمْتُ - غُرُورًا - جَزَاءً مَوْفُورًا - وَاسْتَعِزَّزْ - وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ - لَأَخْتِنِكَ.

2 - ما هي مظاهر تكريم الله تعالى للإنسان في الآيات؟

3 - أبحث عن الأسلوب البلاغي في قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلٍ وَرَجُلٍ﴾ وأبين أثره في المعنى.